

التوظيف السياسي للمبادئ الدينية - ابن تومرت أنموذجاً-

The Political Utilization of Religious Principles - Ibn Tumurt

بوركبة محمد

جامعة وهران-1، الجزائر

bourekba1969@yahoo.fr

بزوجي وليد *

جامعة وهران-1، الجزائر

bezzouw22@gmail.com

- تاريخ الإرسال: 2025/04/20 - تاريخ القبول: 2025/07/13 - تاريخ النشر: 2025/07/29

الملخص: لطالما شكل الدين أساسا ورافدا متينا في قيام الدول في العصر الوسيط على اعتبار أن الفكرة الدينية هي اللبنة الأولى التي يقوم عليها الإيمان بكيونة الدولة.

ذلك ما حدا بكثير من مؤسسي الدول في تلك الفترة لاعتماد مبادئ دينية ينقلبون من خلالها على كيانات يعتبرونها معادية لما ينبغي أن تكون عليه تعاليم الدين؛ ظاهرا، على أن هذه الثورات الدينية غالبا ما كانت تنقلب لأن تكون كيانات سياسية جديدة بدلا عن تلك المنقلب عليها دون أن يغير المبدأ الديني شيئا في حياة الناس، إذ يخلص في النهاية إلى أن هذا الأخير كان مجرد دعاية سياسية لا غير.

الكلمات المفتاحية: ابن تومرت، التكفير، المنكر، المرابطين، الموحدين.

Abstract: Religion has always been a solid foundation for the establishment of the states in the middle age, no matter what kind of state it is, as the religious idea is the first building block on which the belief in the state is based.

This has led many state founders to adopt religious principles to overthrow entities that they consider to be hostile to what the teachings of religion should be; ostensibly, however, these religious revolutions often turned out to be new political entities instead of those overthrown, without the religious principle changing anything in people's lives, concluding that the latter was just political propaganda.

Keywords: Ibn Tumurt; Takfir; Munkar; Almoravid; Almohad.

* المؤلف المرسل: بزوجي وليد.

مقدمة:

لطالما شكّل الدين رافداً أساسياً يرجع المسلمون إلى مبادئه يختصمون إليه فيما شجر بينهم؛ ويحكمونه في الخلافات؛ ليحتكموا في النهاية إلى أوامره ونواهيه التي يطمئنون فيها إلى الوحي الإلهي وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولئن لم يكن أبداً خلاف بين المسلمين، في وجوب إتباع هذه التعاليم الربّانية والتوجيهات النبوية؛ إلا أنّ توظيف هذه المبادئ الراسخة؛ اختلف بين قاصدٍ للحق وحده، وبين موظّفٍ لهذه الحقائق والأساسات لبلوغ مأرب شخصي أو سياسي؛ من ورائه.

وكثيراً ما كانت الحركات الدينية عبر تاريخ المسلمين توظف مبادئ لا غبار على قدسيتها؛ وأحقّيتها؛ ولكنها استغلّتها بطريقة، ربما بلغت بها من الضرر أكثر مما بلغت من المصلحة؛ وربما وُظِّفت في غير مراد الشرع السمح.

لقد شهد تاريخ الإسلام كثيراً من الحركات المتدثرة بغطاء المبدأ الديني كالخوارج والشيعة؛ ونعرج في مقالنا هذا على نموذج آخر عرفه المغرب الإسلامي وهو عبارة عن خليط من المبادئ، التي شكلت أصولاً للدعوة الموحدية؛ كدعوة دينية ونتجت عنها ادعاءات كانت عقيدة الدولة لقرنٍ ونيّف من الزمن؛ ولكننا نتساءل هل كانت دعوة أساسها قناعة عقدية أم أنها كانت تقصد - في أدق ما تقصد - معارضة الحكم المرابطي لا غير؟ وكيف كانت قابلية أهل المغرب والأندلس لهذه الدعوة من خلال الحيز البشري المؤمن بها؟ أم من خلال الرسو الديني الراض لها؟ وكيف آل أمر الدولة والدعوة الموحدية؟ وأيهما سبق للسقوط؟ وكان سبباً في سقوط الآخر؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الورقة البحثية؛ محاولين الكشف عن بعض الزوايا التي تحمل أسئلة تستحق الإجابة.

لقد ركّز ابن تومرت* في بدايات دعوته على بعض المبادئ الإسلامية التي لا خلاف عليها بين المسلمين كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنه «فصل علمه وعمله بمقدار غاياته السياسية»¹ بطريقة ربما أراد ابن تومرت من خلالها «أن يضمن لدعوته النجاح عن طريق إرضاء أصحاب الآراء المختلفة»²؛ وذلك بجعل الدعوة الموحدية مزيجاً؛ بين أقوال المعتزلة؛ والخوارج؛ كما تبنى آراء كلّ من ابن حزم الظاهري

* - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي (ت 524-1130م) من أبرز شخصيات الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ولد في منطقة سوس الأقصى في قبيلة هرغة المصمودية، ونسب نفسه للبيت النبوي ليبرز كمصلح ديني ومجدد لما اعتبره إنحرافاً عقدياً وسياسياً لدولة المرابطين، ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، المراكشي المعجب.

¹ - الملي، مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، دار الكتاب العربي، 2007، ص 10.

² - العبادي، أحمد مختار، صور من حياة الحرب والسلام، ط1، مطبعة سامي، الإسكندرية، سنة 2000، ص 143.

وأبي حامد الغزالي - الذي لقيه في زعمه* - كما حرص على أن يقدم بعض الخوارق التي تنسبه إلى التصوف.

ليس ذلك فحسب بل يمكن القول أنّ ابن تومرت؛ قد وجد في عقول ونفوس أهل المغرب قابلية لأفكاره؛ إذ رأوا فيه الشجاع الذي يتحدى الدولة وليس ضرورياً أن يكون على حق أم على باطل بل المهم اكتسابه للجرأة الكافية لإظهار التمرد والمعارضة للدولة وقوتها³؛ بغضّ النظر عن المبادئ والصواب، المهم أنه ظهر بمظهر كان يرى أغلب المغاربة أنه يستهويهم.

ملحظ جغرافي آخر هو ذلك المسلك الذي سلكه ابن تومرت في رجوعه من المشرق؛ إذ تقرّر كل المصادر أنّه سلك طريق البحر؛ وطريق البحر في الغالب آنذاك هو الطريق الزاخرة بالعمران؛ ومن ثم يُقدّر أنّ ابن تومرت قد أفاد فائدة في الاتجاه السياسي⁴ من خلال المرور على أغلب الحواضر؛ أكثر من إفادته تلك الفائدة المرجوة في طلب العلم؛ أو تحصيله؛ وعليه يمكننا التفصيل في بعض ركائز الدعوة التومرتية كالتالي:

1- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أظهر ابن تومرت نفسه كآمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر؛ في أسلوب متمرد فرض على الأمراء طرده من موسم الحج الذي سبق عودته للمغرب - حسب المراكشي- ليكرر ما فعل في موسم الحج؛ في الإسكندرية قافلاً إلى المغرب؛ لينفى من الإسكندرية أيضاً⁵؛ وقد تمكن من خلال هذه المظاهر المتمردة على الواقع من إظهار شخصه بذلك المصلح والداعية؛ الذي لا يرجو إلاّ الثواب من الله ولا يدفعه إلاّ التحسّر على واقع الدين بين المسلمين؛ بالمقابل أيضاً كان شدّد انتباه الناس المتعاطفة مع هذا الرجل المصلح -فيما يبدو- سبباً في تشكيل بعض الخلايا من الأنصار الذين قد يكونون نواة لما كان يجول في خاطر ابن تومرت وحده، فقد كان لابن تومرت خمسون رجلاً من أهل مصر وكانوا له بمنزلة الظل والأعضاء من الجسد - حسب ما يذكر البيهقي⁶؛ مما ينبؤنا أنّ ابن تومرت كان بصدد عرض نفسه على أنه ذلك الفقيه النقي المؤمن المحاول لتغيير المنكر قدر الإمكان.

*- ينظر: الزركشي، أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، دون سنة، ص 4، كذلك المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني للنشر، القاهرة، سنة 1994، ص 155.

³ - مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة 2004، ص 207.

⁴ - العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، 2009، ص ص 305-306.

⁵ - المراكشي، المصدر السابق، ص 156.

⁶ - الصلابي، علي محمد، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، ج2، دار الإيمان، الإسكندرية، 2003، ص 472.

نستطيع القول أنّ ابن تومرت كان هادفاً أساساً من هذه الدعاية الدينية؛ إلى إظهار خصومه كمارقين عن الدين خارجين عن جادة تعاليم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وليس ابن تومرت وحيداً في هذا المسلك فقد سلكه كلّ من أراد تأسيس ملك أو دولة؛ وليس أقدم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ يظهر صاحبه مظهر المصلح الذي «لا يرغب في سلطة ولا يدفع إلى رغبة في الانقلاب»⁷ الشيء الذي استمر ابن تومرت في كتمانها ولم يظهره حتى تحصنه بتينملل في أعالي مصمودة، مسقط رأسه وحصنه بين قومه.

إننا أمام مراحل مدروسة انطلق فيها ابن تومرت من الفقه إلى الرغبة السياسية؛ تحت غطاء ديني؛ ليحقق في الأخير الهدف المكتمل من الثورة على السلطة وإعلان الدولة الجديدة.

يؤيد ذلك كله أنّ ابن تومرت حسب رأي - ابن خلكان⁸ - كان إذا خاف الهلاك يخلط في كلام فينسب إلى الجنون؛ مما يعني أن جرأة ابن تومرت لم تعن أبدا تهوّه ومجازفته؛ بشكل غير محمود العاقبة.

كما أنّه لم يغادر كل المدن والحوضر بسبب بطش الأمراء فقد غادر المهديّة رغم إكرام أميرها له؛ مما يوحي بأنّ دافعاً أكبر كان وراء التوجه غرباً قبل مراكش.

ليس ذلك فحسب بل كانت نزعتة تزداد عنفاً كلّما اقترب من المغرب⁹؛ تلك الحدة التي لم تكن مانعاً من أن يكون لابن تومرت الوقت الكافي في اصطفاء من يصاحب في كل بلدة؛ فقد كان يتحاشى الأذكياء وأهل الفطن، ويولي وجهه قبل أولئك البُلداء من أهل الأجسام¹⁰؛ لسهولة انقيادهم وقلة حيلتهم في الاعتراض والمجادلة.

كان ديدن ابن تومرت في إهراق الخمر وكسر آلات اللهو كلما حلّ وارتحل، وهذا دأبه في كلّ من بجاية وفاس ومكناسة؛ ولكن عزوف ابن تومرت عن هذا الأسلوب عند اقترابه من تينملل، يجسد معارضة دعائية للمسكرات¹¹ الأمر الذي يعكس حقيقة الحملة الدعائية في محاربة المنكر لا غير؛ الشيء الذي

⁷ - غلاب، عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي الكبير، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 2005، ص 177.

⁸ - ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، المجلد 05، ط6، دار صادر، بيروت، سنة 2013، ص 46.

⁹ - العروي، المرجع السابق، ص 306.

¹⁰ - الناصري، أبي العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، ج2، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1954، ص 78.

¹¹ - نشاط، عبد الله، جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2006، ص ص 72-73.

ينبهنّا إلى أنّ كلّ تلك الادعاءات ربما تتدرج في إطار سياسي محض لا سبيل فيه إلى الإخلاص الديني للمبدأ الشرعي، إلا بقدر ما يمكن من إدراك الغاية السياسية.

هذا النهي عن المنكر الذي أسس له ابن تومرت نفسه كان سبباً في عدم تمامبيعة محمد بن عبد المؤمن بن علي - خليفة ابن تومرت - لما كان عليه من أمور لا تصلح معه الخلافة؛ من إدمان شرب الخمر...¹²؛ وهي مدة كانت لتكون كافية من أجل القضاء على منكر طالما شكّل مثلبة ولج منها الموحدون لمعارضة المرابطين ودولتهم، إذ وبعد كل ذلك الجدل كانت معاقرة الخمر ما تزال تتم في أعلى هرم الدولة، بل وحتى في أسرة عبد المؤمن* الخليفة الروحي لابن تومرت، ورأس الحكم الموحي.

لقد شكّل النهي عن المنكرات ورقة سياسية أكثر منها دعوة حق؛ الأمر الذي حير الفقهاء حول وظيفة الحسبة؛ فأكد كثيرون منهم على أنّها من المهام الخاصة بالسلطان الذي يعين لها أمراء يقومون بها.

بينما استمر كل متهم - ومنهم ابن تومرت - في الرأي أنّها مهمة يقتضيها الإيمان رافضين كل تشريع تشريعه السلطة¹³ القائمة؛ سالكين مسلك الخوارج. مما يقودنا إلى مبدأ خطير تبناه ابن تومرت في دعواه وهو مبدأ التكفير.

2- التكفير:

لسنا هنا بإزاء الكلام عن التكفير في إطار فرقة الخوارج الذي عرفت به وإنّما الكلام عن كيفية استغلال المهدي ابن تومرت لمبدأ التكفير في مواجهة المرابطين؛ من أجل بلوغ غاية ظهر فيما بعد أنّها كانت سياسية بامتياز، وأن المرابطين كانوا أبعد الناس عن الكفر المزعوم الذي ادّعاه ابن تومرت وأصل له حسب ما سنرى.

نجد أنفسنا مضطرين لمراجعة الجغرافية البشرية لمهد دعوة ابن تومرت؛ فنجد أنّ بلاد المغرب الأقصى شهدت دولة من أقدم الدول المستقلة عن مركز الخلافة في دمشق وبغداد.

¹² - المراكشي، المصدر السابق، ص 197.

* - يعتبر الكثير من المؤرخين عبد المؤمن بن علي الكومي التاجري الندرومي (ت سنة 558 هـ) المؤسس الفعلي للدولة الموحدية وإحدى أبرز الشخصيات في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري (ولد في قبيلة كومية إحدى فروع زناتة في منطقة تلمسان؛ التقى المهدي بن تومرت في بجاية وصحبه معه إلى تينملل بالمغرب وكان له بمثابة الظل من الجسد كان المؤسس الفعلي للدولة الموحدية التي امتدت في عهده من برقة إلى الأندلس.

¹³ - العروي، المرجع السابق، ص 306.

تلك الدولة التي أسسها قائد من قادة الفتح الإسلامي؛ لقد كان طريف بن مالك* أحد الزعماء البارزين للخوارج¹⁴ الصفريّة¹⁵؛ كما أنه شارك ميسرة المطغري*** في أولى التمردات على الخلافة الأموية في دمشق؛ كان ذلك في سنة 122هـ-740م؛ شمل ذلك التمرد بلاد الريف وطنجة.

ولكن تمرد ميسرة المطغري هزم؛ وتفرق الصفريّة جنوباً؛ ليؤسس بنو واسول دولة لهم في سجلماسة حوالي سنة 140 هـ؛ كما أسس طريف هذا دولة خارجية في إقليم تامسنا.

ويصف لنا المؤرخ المسعودي مدن هذا الصقع قائلاً: «وفي هذا الصقع من بلاد المغرب خلق من الصفريّة الخوارج؛ لهم مدن ممدودة مثل ثرغية وفيها معدن كبير من الفضة؛ وهو مما يلي الجنوب ويتصل ببلاد الحبشة»¹⁶ وهذا إن دل فإنّما يدل على أنّ المذهب الخارجي سيطر على منطقتين هامتين سواء من جانب الاقتصاد أو الجغرافيا.

فأمّا تامسنا فتتوسط بلاد السوس الأدنى من نهر أبي الرقراق شمالاً إلى أم الربيع من الجنوب؛ ويحدها المحيط غرباً وجبال درن شرقاً¹⁷ وهو موقع يتوسط أهم منابع المياه في المنطقة كما يشكل نقطة اتصال بين الشمال وإقليم سجلماسة الذي يتواصل ليمتد إلى إقليم الصحراء؛ ومن ثم على بلاد السنغال وغانة.

إذن؛ فاختيار ابن تومرت لجبال درن لم يكن لوعورة مسالكها وفقط بل كان كذلك بسبب توسطه كيانين خارجيين ظلاً مدة من الزمن غير يسيرة - حوالي ثلاثة قرون بالنسبة لدولة بني صالح في تامسنا¹⁸ -

*- طريف بن مالك؛ اختلف بين نسبته العربية الغسانية؛ وبين القول بأنه كان من البربر الذين التحقوا بجيش طارق بن زياد تحت قيادة موسى بن نصير والي إفريقية آنذاك، ويعرف عن طريف بن مالك أنه كان أول قائد مسلم يعبر إلى شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الكامل لها؛ وذلك خلال الحملة الاستطلاعية لها سنة 99 هجرية 710 ميلادية؛ إذ كلفه موسى بن نصير بقيادة أسطول صغير يتكون من أربعة مراكب تقل حوالي 500 جندي مسلم لينزل بمكان يعرف إلى الآن باسمه (Tarifa) أو ما يسمى بجزيرة طريف في المصادر الإسلامية، ينظر؛ ابن عذارى؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. المقرئ؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.

¹⁴ - الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، الملل والنحل، تحقيق أمير مهنا وحسن علي فاعور، ج1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 153.

** - الصفريّة؛ إحدى فرق الخوارج التي وإن اتفقت مع الخوارج على المبادئ العامة إلا أنّها عرفت ببعض الاعتدال مقارنة بالأزارقة؛ إذ لم يكفروا المسلمين بمجرد المعصية ففرقوا بين الكبيرة والصغيرة؛ كما أجازوا المعاشية المؤقتة مع المسلمين إن لم تتوفر القدرة على الخروج المسلح¹⁵.

*** - لا يعرف لميسرة المطغري تاريخ ميلاد؛ وهو شائع في شخصيات القرن الأول الهجري لكن ما هو معروف ومؤكد تاريخياً أنّ ثورته وقعت سنة 122هـ/740 ميلادية، وأنه كان رجلاً بالغاً وقائداً عسكرياً حينها؛ مما يرجح أنّه ولد تقريباً في نهاية القرن الأول الهجري؛ وقد أعلن نفسه خليفة في منطقة تامسنة؛ وطرد والي الأموي من طنجة؛ وذلك في الخليفة هشام بن عبد الملك، ابن عذارى، البيان المغرب. حسين مؤنس؛ فتح المغرب والأندلس.

¹⁶ - المسعودي، أبي الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ط1، مراجعة حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، سنة 2011، ص 128.

¹⁷ - رجب، محمد عبد الحليم، دولة بني صالح في تامسنا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، بدون سنة، ص ص 13-14.

¹⁸ - رجب محمد عبد الحليم، نفس المرجع، ص 05.

قابضين على دواليب الحياة الاقتصادية والسياسية؛ وحتى الفكرية لسكان الإقليم؛ الذي يعني أن أهل المنطقة ورثوا فكر قتال المخالفين كابراً عن كابرٍ.

قد لا يعني ذلك أن أهل هذا الإقليم بقوا خوارج بكل ما تحمل الكلمة؛ ولكن ثلاثة قرون من الوجود الخارجي كانت كافية لأن ترسو عقائد وممارسات جعلت إعادة بث هذا الفكر من السهولة بمكان؛ من طرف داعية كابن تومرت؛ ومما يزيد من تأكيد هذا الإسقاط؛ وصف ابن عذارى المراكشي لإقليم تامسنا الذي أسسه طريف هذا قائلاً: «أن بلاد تامسنا هي بلاد المصامدة»¹⁹ أي أنها عصبية القبائل التي لجأ إليها ابن تومرت في تلك الجبال الوعرة من درن.

بالزيادة عليه؛ فإن التسلسل الذي سلكه ابن تومرت؛ مكنه من القول بكفر المرابطين؛ الذين رفضوا الاستجابة - المفترضة - لتغيير المنكر وأمره بالمعروف؛ الأمر الذي جعله يستمد مشروعية قتالهم من خلال التكفير وكسب المزيد من القوى البشرية في صف الدعوة الموحدية ضد المرابطين؛ إذ استمد بعض عناصر حكمه الجديد من عدم شرعية الحكم المتآكل بسبب سقوطه في المحظورات²⁰. هذا ما نجده صراحاً؛ في تصنيف ابن تومرت للمرابطين على أنهم كفار؛ في تطور خطير في المواجهة بين الفريقين؛ لنتساءل هل يمكن القول أن تلك المخالفات التي أحصاها ابن تومرت على الدولة المرابطية كافية لتكفيرهم وإخراجهم عن دائرة الدين؟ وإلا فماذا يقصد ابن تومرت من قوله «أن الله حرم طاعة المجسمين والمرتدين؛ واليهود والنصارى»²¹ فعطفهم عليهم والمعطوف على الكفار كافر بل ابتداء بهم فجعلهم ربما أشد كفراً من الكفار أصلاً.

أبعد من ذلك يذهب ابن تومرت؛ عندما يجعل باباً في وجوب جهاد المرابطين على الكفر والتجسيم مستنداً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾²² لقد كان المرابطون - كفاراً بنص الكتاب؛ أو على الأقل هكذا كان يصورهم لأتباعه.

لا شك في أن ابن تومرت كان بين يديه ما يؤكد له أن المرابطين ليسوا كما وصفهم²³؛ ومن أوضح تلك الدلائل: انتصاراتهم في الأندلس؛ التي كانت مدوية ضد النصارى: نصارى الأندلس.

19 - رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 15.

20 - نشاط، مصطفى، المرجع السابق، ص 64.

21 - ابن تومرت، المهدي، أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عمار طالبي، الجزائر، 2009، ص 244.

22 - التوبة، الآية 123.

23 - مؤنس، حسين، المرجع السابق، ص 210.

لقد كان التكفير - تكفير المرابطين - المرحلة الثانية في التأسيس الديني للمواجهة مع المرابطين؛ بعد حملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قادها المهدي يبدو أنه نجح إلى حد ما في إقناع أتباعه بدهاء كبير بضرورة إسقاط هذا الحكم من خلال المواجهة.

ولذلك فإننا نجد ابن تومرت ومباشرة بعد حكمه على المرابطين بالكفر يحكم بوجوب قتالهم؛ وقد عدّ الكثير من الدلائل الموجبة لذلك القتال ذلك أنهم - حسب - ضيعوا السنة؛ ومنعوا الزكاة؛ وارتكبوا الفجور والمناكر بل وحتى العناد والفساد في الأرض²⁴؛ ولكننا لسنا ندري الأساسات التي بنى عليها ابن تومرت دعواه.

يواصل في إنكاء نار الحماس في أتباعه من خلال وصفهم بالطائفة المنصورة المقاتلة للدجال وأنهم لا يزالون منتصرين إلى قيام الساعة²⁵.

ربما يكون ابن تومرت قد انطلق من فكرة تمسك المرابطين بالمذهب السني المالكي والذي جعلهم يؤولون المتشابه من الصفات على قول مالك بن أنس رضي الله عنه: «الاستواء المعلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة» لا شك أنه لم يكن مذهب المرابطين وحدهم بل كان مذهب جمهور المسلمين في التوقف في الصفات وإثبات ما ثبت منها دون وصف أو كيف.

الأمر الذي حدا بابن تومرت إلى إلصاق صفة التجسيم²⁶ بالمرابطين وهو ما كان في رأيه دليلاً كافياً لتكفيرهم؛ مما يقتضي وجوب قتالهم.

يذكر لنا البيهقي سبب هذه التسميات في معرض كلامه عن الغزاة التاسعة وفيها أن ابن تومرت سأل أتباعه ماذا يقولون - أي المرابطين - قالوا لقبونا بالخوارج؛ فأجاب ابن تومرت؛ ذكر الله في كتابه: ﴿فَمَنْ اِغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ قولوا لهم أنتم أيضاً المجسمون قالوا: ففعلنا²⁷؛ فقد كانت تسمية المرابطين بالمجسمين من قبيل تبادل التهم أكثر من كونه قناعة راسخة عند ابن تومرت وأتباعه - حسب البيهقي -.

²⁴ - ابن تومرت، المصدر السابق، ص 145، ص 248 وما يليها.

²⁵ - ابن تومرت، نفس المصدر، نفس الصفحات.

²⁶ - الغنای، مراجع عقيلة، قيام دولة الموحدين، ط2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، سنة 2008، ص 202.

²⁷ - البيهقي، أبي بكر علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الوهاب بن المنصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة 1971، ص 38.

يذهب ابن تومرت أبعد من ذلك عندما يوجب قتال المرابطين على المسلمين جميعاً لا على الموحدين وحدهم؛ بل من لم يقاتلهم فهو كافر مثلهم²⁸؛ ويظهر ذلك جلياً من خلال القوة والاستماتة التي واجه فيها الموحدون المرابطين دون هودة.

لقد كانت تهما ثقيلة كالحا ابن تومرت للمرابطين؛ دفعت الكثير من رعايا الدولة المرابطية إلى "التخلي عنها"²⁹ والانضمام إلى قوة الموحدين الصاعدة.

ليس مفهوم التكفير فقط؛ بل حتى مفهوم التوحيد هو الآخر وُظف سياسياً من خلال إسقاط كلمة التوحيد على توحيد ابن تومرت وأتباعه؛ أي أنه - التوحيد - لم يسلم من التوظيف السياسي إذ كل من خالف «طريقته فليس بموحد»³⁰؛ ليفرض بذلك ابن تومرت نمطية غير ذلك التوحيد الذي يؤمن به المسلمون؛ فتوحيد ابن تومرت يقتضي موافقته على تكفير المرابطين والإيمان بوجوب قتالهم؛ ومناصرة ابن تومرت وما يفتي به.

على هذين المعنيين اللذين رسخ ابن تومرت مفهوما في أتباعه مفهوم الكفر والتوحيد؛ واللذين حملهما ابن تومرت ما لا تطيقه المفاهيم؛ فقد ترك لأتباعه من بعده مهمة الدفاع عن هذه المعتقدات كما فهمها هو؛ مما جعله يحملهم إصراراً لم يكن لهم طاقة بحمله.

لقد كان موروثاً تومرتياً هداماً - إن صح التعبير - جعلت منها تهمة جاهزة في أيدي الموحدين يرمون بها كل من عارضهم؛ ولكن بالموازاة فقد كانت عقيدة صعب على الموحدين إدراك لواقعيتها؛ وما أن كادوا يريدون التخلص منها إلا كان الأوان قد فات³¹؛ وخرجت الأمور عن نصابها.

3- العقيدة التومرتية؛ نهاية الإيمان

نستطيع القول بأن مبادئ كالتوحيد والتكفير والعصمة والمهدوية؛ كانت أساسات وُظفت سياسياً بامتنياز؛ في معارضته المرابطين؛ واستمر العمل به؛ ليُرمى به كل من لم يدخل في طاعة الموحدين.

²⁸ - الغنای، نفس المرجع، ص 203.

²⁹ - الغنای، المرجع السابق، ص 203.

³⁰ - مغراوي، مصطفى، البعد السياسي في انتشار المذهب الأصفري في المشرق والمغرب الإسلامي، كنوز الحكمة، الجزائر، سنة 2011، ص 43.

³¹ - المغراوي، محمد، الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، سنة 2006، ص 145 وما يليها.

لقد كان خلافاً لم يفتن له الموحدون³²؛ إذ تسبب حصر مفهوم التوحيد؛ في ما ذهب إليه ابن تومرت - وحده - إلى تحديد الإيمان كله؛ على أنه إيمان ابن تومرت؛ لا الإيمان الذي عرفه المغاربة قبلاً ويدين به المسلمون خلفاً عن سلف.

لقد جوبه الرافضون من المصامدة لهذه الفكرة بعمليات تمييز واسعة قُتِلوا فيها؛ وقتل منهم خلق كبير فقط جزاء معارضتهم لأي فكرة من أفكار ابن تومرت.

ولكن الإشكال تطوّر حينما تسلّل هذا الرفض حتى إلى هرم السلطة الموحدية مع استمرار كتمان المعارضة لمبادئ المهديّ ابن تومرت وعدم إظهارها للعلن فقد كان للخليفة عبد المؤمن بن علي رأي آخر في مسألة ولاية العهد بعده حسب ابن الأثير³³ الذي يورد تحايل عبد المؤمن بن علي على الموحدين؛ حتى يولي عهد الخلافة لبعض ولده.

وذلك بأن يضع بين الموحدين من يقوم بين يدي الخليفة مطالباً بأن يكون الخليفة بعض ولده؛ وبعد خوف أبي حفص عمر وقد كان من أعيان الموحدين خلع نفسه من ولاية العهد وبويع لمحمد بن عبد المؤمن بن علي بالخلافة.

أولى المخالفات لمنهج ابن تومرت هو ولاية العهد تلك؛ فقد توفي ابن تومرت ولم يعهد بالخلافة لأحد؛ فشكّل سلوك عبد المؤمن بن علي نقضاً صريحاً لمنهج الإمام - المقدس؛ أو على الأقل هكذا كان يراه الناس.

يبدو أنّ المفاهيم التومرتية؛ قد أدرك باكراً أنّها غير واقعية؛ ولكن بقيت أو أُبقيت على الأقل في الجانب الرمزي والشعاراتي للدولة؛ إذ يبدو أنّها كانت توفر تميزاً للموحدين على من سواهم؛ بما يكسبهم الشرعية في حكمهم؛ بصفتهم ورثة لابن تومرت مؤسس الدولة.

ولما انتصر المأمون داخلاً مراكش؛ خطب خطبة كانت قاصمة في تاريخ دولة الموحدين ودعوتهم التومرتية على حدّ سواء حيث أمر الناس قائلاً: «لا تدعوه بالمهدي المعصوم وادعوه بالغويّ المذموم؛ ألا لا مهدي إلا عيسى»³⁴؛ ليس ذلك وحسب بل صدع بما ادعى أنّه كان قناعة قديمة عند خلفاء الموحدين ولكنه قرر أنّه أوان التصريح بما ظل حيناً من الدهر يضيق به الصدر ولا ينطلق به اللسان.

³² - الغنای، المرجع السابق، ص 46.

³³ - ابن الأثير، تاريخ ابن الأثير، ج 09، دون سنة، ص 408.

³⁴ - الناصري، المصدر السابق، ص 212، ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدین، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، سنة 1985، ص 286.

إذ قال حسب رواية ابن عذاري³⁵ قائلاً في ذات الخطبة: «وقد كان سيدنا المنصور - في إشارة إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن بن علي- قد همّ أن يصدع بما به صدعنا وأن يرفع الخوف الذي رفعنا»؛ فعلاً لقد أوضح لنا المأمون على أن العقيدة التومرتية كانت في منحى تنازلي من حيث الاعتقاد فيها والإيمان بها؛ حتى في هرم الدولة نفسها التي أسسها ابن تومرت.

وبهذا الإعلان دق الخليفة المأمون آخر الدُسر في نعش الدولة والدعوة الموحدية على حد سواء في نهاية طور آخر من أطوار الحضارة في الغرب الإسلامي.

معطيات كثيرة حددت توجه المأمون؛ هذا منها:

1- الهوية السنية للمغاربة عموماً حيث ظلت سلطة الفقهاء المالكية راسية عند المغاربة مما أعجز المنهج التومرتي عن استمالة وجدان السكان من خلال مقارباته البعيدة عن واقعهم.

2- كذلك شكلت النشأة الأندلسية للمأمون؛ البعيدة عن الوسط المصمودي كمهد للفكرة التومرتية؛ والقريبة من البيئة العلمية الراقية في الأندلس؛ شكلت حافزاً قوياً حتى يثور المأمون على ما قد يعتبر قناعة غير علمية رسخت في نفسه؛ ورأى جلياً عدم جدارتها بالاستمرار في الاستخفاف بما رسى عند المغاربة في تراث مالكي وفكري سني.

3- كذلك ورث المأمون تحفظ والده أبي يعقوب يوسف المنصور؛ وتبرمه من الموروث التومرتي؛ الأمر الذي جعل المأمون في خطبته ينطق على السنة الرافضين بصمت؛ وقال ما لم يجرؤ أحدٌ على قوله منذ مجيء ابن تومرت من المشرق.

لقد حاول ابن تومرت أن يفرض على المغاربة إسلاماً معقداً من حيث الأفكار؛ في حين أنّ المغاربة آمنوا بصيغة للإسلام كانت أبسط ما تكون إلى ما ورثوه من الرعيل الأول من السلف.

الخاتمة

إنّ الصورة النمطية التي قدم ابن تومرت نفسه؛ والتي اجتذبت عصبية من البربر لم تتل نفس الانبهار بالنسبة لساكنة العدو الأندلسية؛ بل حتى بالنسبة للعرب البعيدين عن مركز الدولة الموحدية تجاه الشرق.

³⁵ - ابن عذاري، المصدر السابق، ص 287.

وإن كان ذلك صحيحاً فمن الممكن القول أنّ الدولة الموحدية ارتكزت على القوة العسكرية؛ كعامل حاسم في وجودها وتوسعها؛ الأمر الذي لم يتطلب القدر الكبير من موافقة الناس المحكومين؛ مما لم يجعل لعامة الناس حماسة تشكل رابطاً متيناً بين الحكام الموحدين والمحكومين من العامة.

كان يكفي في هذا التفكك الصامت؛ أن يبدي عضو واحد استعاضة - المأمون - من الوضع ليتحول إلى تعبير عن تصوّر عام كان سائداً؛ إن هذا الأمر كان أكثر شيء رئيسي؛ سبب السقوط الموحدية؛ بعد الرفض الطبيعي لأفكار ابن تومرت.